السلطان سليم الثاني

فترة الحكم: ١٥٦٦-١٥٧٤

السلطان العثماني الحادي عشر

الألقاب والأسماء الشعرية: ساري (الأشقر)، ومَست وسلِيمي

اسم الأب: السلطان سليمان

اسم الأم: خُرَّم سلطان

محل وتاريخ الميلاد: إسطنبول، ٣٠ مايو/أيار سنة ١٥٢٤

العمر عند اعتلاء العرش: ٤٢ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: نزيف المخ، ١٥ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٥٧٤

مكان الوفاة وموقع الضريح: إسطنبول، ويقع قبره بالقرب من آياصوفيا

أبناؤه: مراد الثالث، ومحمد، وعبد الله، وجهانْكير، ومصطفى، وعثمان، وسليمان

بناته: فاطمة سلطان، وشاه سلطان، وجوهر خان سلطان، وأسمَهان سلطان

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان سليم الثاني، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمى".

كان السلطان سليم الثاني السلطان الأول الذي ولد ومات في العاصمة العثمانية إسطنبول. بعد سنوات طويلة من التعليم في قصر "طوب قابي"، عُين سليم الثاني واليا على قُونْيَة (مرتين) وعلى مانيسا وأخيرا على كوتاهيا. وخلال سنواته كولي للعهد منع أخاه الأمير بايزيد عندما حاول نيل العرش. وعندما أبلغه الصدر الأعظم سوكولو سرا بوفاة أبيه في زِكَتْوار بالمجر، غادر كوتاهيا إلى إسطنبول، وأعلن نفسه السلطان الجديد، ثم سافر شمالا إلى بلجراد لاستقبال جثمان أبيه المتوفى. وفي تلك الأثناء أثارت قوات الانكشارية اضطرابا خطيرا بسبب مسألة استلامهم للعطايا الخاصة بجلوس السلطان على العرش، والتي كانت تسمى "جلوس". فضمن السلطان الجديد تحقيق السلام من خلال قبول مطالب الانكشارية، فمثّل ذلك نهجا غير اعتيادي لم يتبعه السلطان ياووز سليم، الذي سمي السلطان الجديد على اسمه، ولا السلطان سليمان القانوني. والواقع أن ذلك التصرف اعتُبر إشارة على أنه لن يقود الجيش ببراعة مثلما فعل أبوه وجدّه.

وبسبب كفاءة الصدر الأعظم محمد سُوكُولُّو (سُوقُولُّو) باشا -الذي تلقى تدريبه واكتسب خبرته خلال عهد السلطان سليمان- مما وفّر له عنصري الكفاءة والانضباط بالنسبة لشؤون الدولة، فقد ترك السلطان سليم الثاني له مسؤولية الشؤون الإدارية.

وقع أول حادث مهم خلال عهد سليم الثاني عندما تمرد الإمام المُطهّر في اليمن، فتم إرسال "سنان باشا" و"عثمان أوزدمير أغلو باشا" والي الحبشة العام (إثيوبيا الآن) إلى اليمن، حيث استطاعا معا قمع ذلك التمرد، وتمكين سيادة السلطة العثمانية في اليمن.

وأدى استيلاء إيفان فاسيليفتش الرابع ملك روسيا (إيفان الرهيب) على منطقة أستراخان عام ١٥٥٧ إلى قطع طريق الحجاج المسلمين من تلك المنطقة، ومنعهم من الوصول إلى مكة عن طريق القرم. فوجه الحجاج طلبا لخليفة المسلمين فأمر السلطان العثماني سليم الثاني بقيام حملة لتسهيل رحلة الحج، غير أن تلك الحملة لم تسفر عن أية نتائج في ظل غياب دعم خان القرم.

كانت سلطنة آجَه، الدولة المسلمة في جزيرة سومطرة التي تقع غرب إندونيسيا، قد استنجدت بالسلطان سليمان القانوني للمساعدة على إنهاء الاضطهاد البرتغالي، فردّ السلطان بإرسال حامية عثمانية للمنطقة. وخلال عهد السلطان سليم الثاني طلبت سلطنة

آجَه المساعدةَ العثمانية مرة أخرى فأرسل سليم الثاني أسطولا بحريا يتألف من اثنتين وعشرين سفينة بقيادة "كُورْدْ أوغْلو خضر رئيس"، قبطان السويس. وتجدر الإشارة إلى أن عددا من الجنود الأتراك الذين أرسلوا إلى المنطقة لم يعودوا إلى تركيا بل ظلوا في سومطرة، ويربط أحفادُهم هويتَهم إلى اليوم بأصولهم التركية. كما يبدو ذلك على عَلَم آجَه ؛ حيث يشابه كثيرا الأعلام العثمانية والتركية، كما أن شعب آجَه مازال يُكنّ مشاعر المحبة لتركيا.

استمر البنادقة في جزيرة قبرص في تهديدهم لأمن سواحل الأناضول ومصر لفترة طويلة، وتوالت أعمال القرصنة من جانبهم ضد سفن المسلمين التجارية وقوارب الحجيج، حتى تحولت الجزيرة في النهاية إلى وكر للقراصنة. ولذلك أُرسل مبعوثون عثمانيون إلى البندقية يحملون رسالة تقول: "إما أن تتوقفوا عن ممارسة القرصنة في قبرص، أو سوف يستولي العثمانيون عليها". وتلا ذلك جولة ثانية من المراسلة عندما رفض البنادقة تحذير العثمانيين الذي أمروا فيه البنادقة بتسليم الجزيرة. وفي المجلس الاستشاري للسلطان بشأن هذه المسألة عارض محمد سُكُولُّو باشا الصدر الأعظم فكرة فتح قبرص، لأنه رأى أن ذلك سوف يجلب سلسلة جديدة من الحملات الصليبية، لكن السلطان وأغلبية الحاضرين في المجلس أيدوا الحملة. فتوجه الأسطول العثماني بقيادة الوزير "لالا مصطفى باشا" لحصار الجزيرة، واستولى عليها أخيرا عام ١٥٧١ بعد حصار عام كامل. وعمّر السلطان الجزيرة بأعداد كبيرة من التركمانيين القادمين من كارامان.

وخلال فتح قبرص حوصرت ماغوسا (فاماغوستا) من الجانب الشرقي من قبرص، فقررت قيادة الأسطول العثماني العودة. وحَوّلت البحريةُ منطقة نشاطها إلى شواطئ البحر الأدرياتيكي تحسبا لهجوم محتمل من طرف الأسطول الصليبي على قبرص. وبعد أن قضى الأسطول الشتاء في إسطنبول أبحر في بداية الربيع

أمر السلطان سليم الثاني بإنشاء مسجد السليمية بالقرب من مقبرة جلال الدين الرومي، حينما كان سليم الثاني حينئذ أميرا وحاكما على قونية.

إلى البحر المتوسط مرة أخرى، لكنهم لم يواجهوا أي أسطول صليبي، وهو أمر لم يكن متوقعا. وعندما رسا الأسطول العثماني في ميناء ليبانتو (Lepanto)، فضل البنادقة والأسبان -الذين وحدوا قواتهم تحت قيادة البابا- الهجوم من مكمنهم بدلا من قتال العثمانيين، ونجحوا في حرق الأسطول العثماني في ليبانتو في سبتمبر/ أيلول عام ١٥٧١. لكن "علي باشا أولوج"، الوالي العام لمدينة الجزائر، تمكن من إنقاذ حوالي عشرين سفينة من كمين العدو ووصل إلى إسطنبول بسلام.

أصيب السلطان سليم الثاني بخيبة أمل كبيرة بعد سماعه أخبار تلك الكارثة البحرية. وقام بترقية علي أولوج باشا الذي نجا من ليبانتو ليكون أميرالا عاما، وأنعم عليه بلقب "قِلِجْ" (السيف). وتروي السجلات التاريخية أن الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا عندما رأى تلهف الأميرال العام الجديد لإعادة بناء الأسطول العثماني قال له: "عزيزي الباشا، إن قوة هذه االدولة [العثمانية] هائلة، ولذلك فهي تستحق أسطولا مكونا من سفن مراسيها من فضة، وحبالها من خيوط الحرير، وقماش أشرعتها من نسيج الحرير. تعال إلي كلما نقصت لديك الموارد من أجل سفنك".

وبعد أربعة أشهر فقط من العمل الشاق الدؤوب تم بناء أسطول عثماني جديد يضم أكثر من مائتي سفينة حربية. وكان حجم ثمانية من السفن الجديدة أضخم من أي سفينة شوهدت قبل ذلك، وهو ما أثار موجة رعب واسعة في أوروبا.

وكان مبعوث بندقي قد جاء ليرى بنفسه وقْع هزيمة ليبانتو على العثمانيين، فرد عليه الصدر الأعظم محمد سوكولو باشا بأسلوب مجازي قائلا: "نحن قطعنا أذرعكم عندما فتحنا قبرص، أما أنتم فحلقتم لحيتنا عندما حرقتم الأسطول. والأذرع المقطوعة لا يمكن استعادتها، لكن لحيتنا التي حلقتموها سوف تنمو بكثافة أكبر بالتأكيد". وتشير عبارة سوكولو هذه إلى قوة الدولة العثمانية غير المختَلف عليها في القرن السادس عشر. وقد أيد الأميرال العام "قلج علي باشا" عبارة الصدر الأعظم عمليا عندما فتح تونس وهزم الأسبان هناك في عام ١٥٧٤، أي بعد ثلاثة أعوام فقط من هزيمة ليبانتو.

كان السلطان سليم الثاني يخطط لشق مجرى مائي خلال "برزخ السويس" يربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. ورغم أن جده السلطان السليم الأول كان يرغب أيضا في تنفيذ هذه الخطة فإن أيا منهما لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة.

كان هدف العثمانيين الرئيسي من ربط البحر المتوسط والسويس من خلال قناة مائية هو حماية التجارة وطريق الحج، بالإضافة إلى حماية الأراضي المقدسة والمناطق المسلمة الأخرى من هجمات البرتغاليين. وكان شق القناة سيحيي أيضا طريق التوابل الذي ينتهي في البحر المتوسط، ويقدم طريقا مختصرا مهما إلى طريق المحيط الهندي، والذي اعتاد الأوروبيون الإبحار باتجاهه عبر رأس الرجاء الصالح

منظر ليلي لمسجد السليمية في أَدِرْنَهْ ترك بصمته على المدينة بمآذنه الأربع الرائعة، وشرفاته الثلاث، وظلاله الرائعة ذات القبة الواحدة.

مشهد رائع لقبة من الداخل في مسجد السليمية بأَدِرْنَهْ.

(بالأفريكانية: Kaap die Goeie Hoop، كاب دي جوي هوب). ومن شأن شق هذه القناة أيضا تفعيل الأنشطة التجارية مع آسيا عبر الأراضي العثمانية، وهو أمر يعزز موقع الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية. ورغم أن مهمة بحث هذا المشروع أوكلت إلى والي مصر فإن ذلك لم يسفر عن شيء ملموس. وقام البريطانيون لاحقا بشق القناة في عام ١٨٦٩.

وخلال عهد سليم الثاني نوقش مشروع شق مجرى مائي آخر، حيث كان يُخطط لشق قناة بين نهري الفولجا والدون، لربط البحر الأسود ببحر قزوين. ولو أن هذا المشروع قد نُفذ لكان قد سهل الاشتباك العسكري العثماني ضد بلاد فارس، وساعد العثمانيين في ترسيخ سيادتهم في القوقاز، وأعاق توسع روسيا في البلاد التركية الإسلامية بوسط آسيا، ولكان أدى أيضا إلى إقامة علاقات مباشرة مع الأتراك في وسط آسيا. ورغم تجريف ثلث المجرى المائي بالفعل فإن المشروع لم يستكمل لأسباب منها أن خان القرم لم يسهم فيه بشكل كافٍ، ولأن الروسيين أعاقوا استمرار المشروع عام ١٥٦٩. وقد استكمل الروس القناة بين نهري الفولجا والدون وافتتحوها ولكن بعد أربعة قرون.

قبة رائعة من الداخل بمسجد السليمية، يبلغ ارتفاعها ٤٣ مترا وقطرها ٣١ مترا، وهي تستند على مجموعة من ثماني أعمدة، وتمتد الأقواس من الأعمدة إلى قباب أصغر مضاءة بالنوافذ.

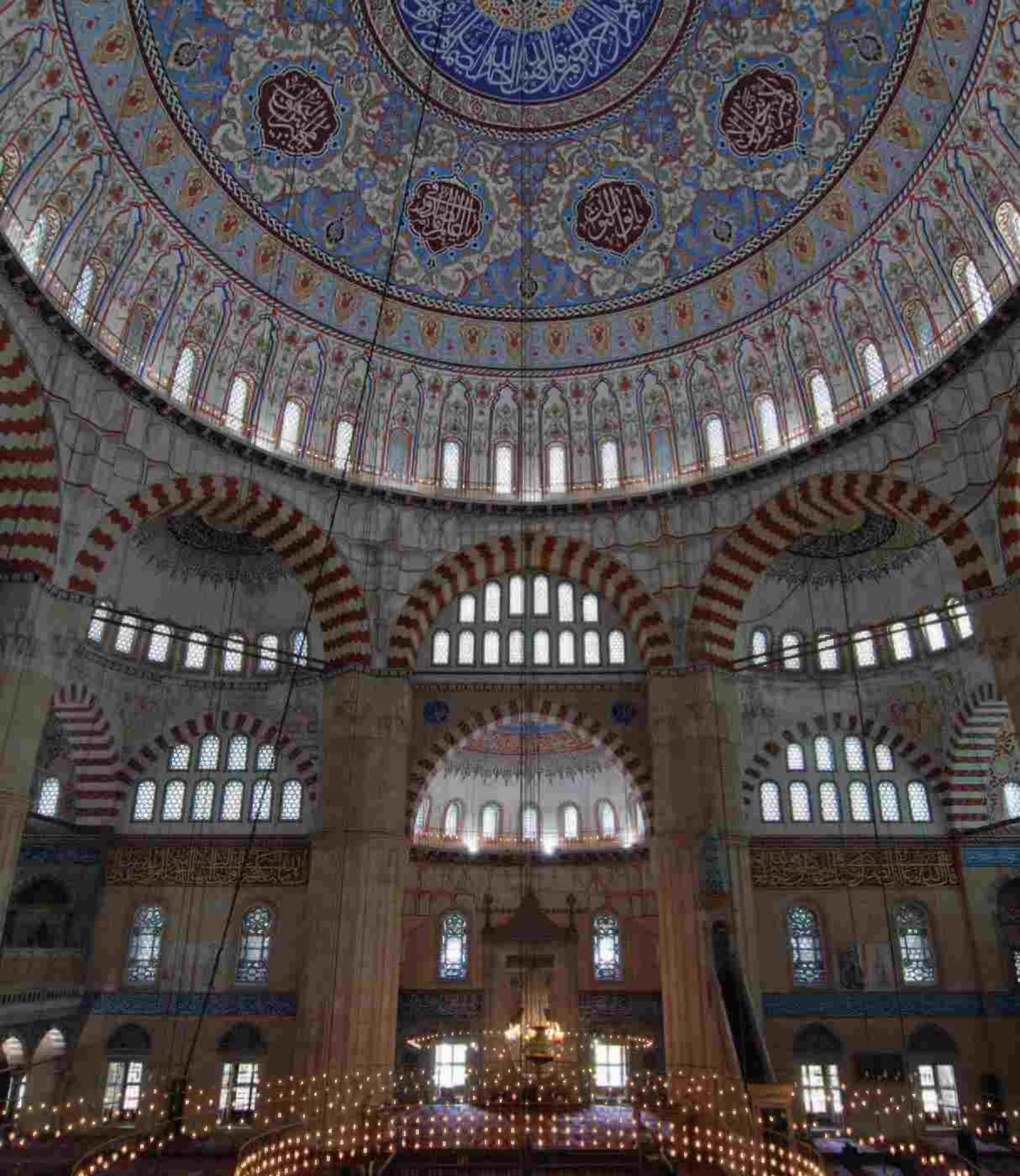

نافورة رخامية أنيقة وحوض
حمام السلطان

قام المهندس الشهير سنان بإنشاء حمام السلطان في قسم الحريم بقصر "طوب قابي". وعلى خلاف الاعتقاد السائد، لم يُتوفّ السلطان سليم الثاني في هذا الحمام، ولكن في الحمام المجاور لمكتب الخزانة الذي تعرض للتلف الكامل بسبب الرطوبة.

توفي السلطان سليم الثاني جراء نزيف مفاجئ في المخ عندما سقط واصطدم رأسُه بالأرض الرخامية في حمام السلاطين الموجود بقصر "طوب قابي" في ذلك الوقت. فكان سليم الثاني أول سلطان يُتوفى في قصر "طوب قابي" بإسطنبول. ودامت فترة حكمه القصيرة سبع سنوات مثل جده، لكنه كان مختلفا عنه رغم أنه سمى باسمه، حيث إنه لم يستغل فترة حكمه في سلسلة من الحملات المتتابعة، فقد حكم الدولة من داخل قصره. ولحسن حظه أن سوكولو أثبت أنه صدر أعظم ممتاز، إضافة إلى أن كفاءة سوكولو ومهاراته التنظيمية جنبت وجود نقاط ضعف كبيرة.

كان السلطان سليم الثاني بارعا في رماية الأسهم، وكان يكتب الشعر تحت الاسم المستعار "سَليمي". وكان أول سلطان أشقر، وبعينين زرقاوين، ولذلك لقب كثيرا بـ"ساري" أي سليم "الأشقر". وكان سليم الثاني يدعم ويرعى العلماء خلال عهده ويعطى الأولوية لأعمال التشييد والبناء. فقد أوكل علي سبيل المثال إلى المعماري العظيم سنان مهمة تجديد وتوسيع أجزاء مختلفة من قصر "طوب قابي"، وبخاصة المطابخ الموجودة بالجانب الأيمن من الفناء الثاني بعد أن دمرها حريق نشب عام ١٥٧٤. وتستخدم مطابخ قصر "طوب قابي" الآن -والتي تعد أكبر من نظرائها الأوروبية- لعرض واحدة من أثمن مجموعات الخزف في العالم.

بلغت العمارة العثمانية قمتها عندما أنشأ السلطان سليم مسجدا في "أدِرْنه" يحمل اسمه. فمسجد السليمية ليس فقط التحفة الفنية الأكثر تميزا للمعماري العثماني العظيم سنان، بل إنه كذلك أيضا بالنسبة لفن العمارة العالمي. كان السلطان يحب "أدِرْنه" أكثر من إسطنبول، ولذلك أمر ببناء مسجد السليمية الرائع في مدينته المحبوبة "أدِرْنه" بدلا من العاصمة المجيدة إسطنبول. ورغم أن عهده كان أقل تأثيرا من عهد أبيه وجده فإن تماسك النظام الإداري ووجود رجال دولة أكفاء مثل سوكولو خلال عهده حافظا على زخم التوسع العثماني.

وعلاوة على ذلك، قاد السلطان سليم الثاني سلسلة من أعمال البناء من أجل حماية مدينة مكة المقدسة وراحة الحجاج.

قبقاب حمام عثماني

خضع المطبخ السلطاني في قصر "طوب قابي" لتجديدات شاملة خلال عهد السلطان سليم الثاني. ويَظهر في الصورة جزء من المجموعة الفريدة من الخزف والبورسلين المعروضة في مطابخ القصر خلال السنوات الأولى عندما تم تحويل القصر إلى متحف. وكان يجري يوميا تحضير وجبات لنحو خمسة آلاف شخص في المتوسط في هذا المطبخ، ليس فقط للمقيمين في القصر، ولكن أيضا للمبعوثين الأجانب ومقدمي العرائض وأي شخص يأتي إلى القصر. وكان من المعتاد أيضا إعداد وتقديم عدد هائل من وجبات الإفطار في شهر رمضان في القصر؛ حيث كان الأغنياء والفقراء والكثيرون يفطرون معا. كما كان يُدْعى إلى الإفطار المبعوثون الأجانب والقيادات الدينية المسيحية واليهودية.